**سوف عبيد من " الأرض عطشى"**

**إلى " عمر واحد لا يكفي"**

**أو العيش بملء الدنيا احتفاء بالحياة**

\* مصطفى مدايني

سوف عبيد شاعر تونسي ولد ب "بئر الكرمة" بغمراسن من الجنوب التونسي. نشأ بتونس ودرس بابتدائية مقرين والتحق بمعهدالصادقيةومعهد ابن شرف ثم تخرج من كلية الآداب سنة 1976 اشتغل بالتدريس وقرض الشعر منذ السبعينات. أصدر عديد الدواوين افتتحها ب "الأرض عطشى" 1980 و " نوارة الملح" 1984 و "امرأة الفسيفساء" 1985 و " صديد الروح " 1989 و " جناح خارج السرب " 1992 و "نبع واحد لضفاف شتى" 1985 و " عمر واحد لا يكفي" 2003.

وهذه الدواوين تمتح من رؤية مخصوصة طبعت انتاج سوف عبيد منذ ديوانه الأول.وقد عرفت الشاعر طالبا ونشأت بيننا صداقة متينة كانت نتيجة تقارب فكري روحي. كنا نؤمن بالكلمة باعتبارها صوتا داويا يدل بالأساس على أنسنة الانسان. والانسان عند سوف عبيد انسان لأنه يملك لسانا يقول ويدا تحبر وعقلا يدبر. وهذه الرؤية تتوضح بطريقة جوهرية في ديوانه الأخير " عمر واحد لا يكفي «. " عمر واحد لا يكفي "يحيل بلا شك الى "نبع واحد لضفاف شتى" الذي يحيل بدوره الى "جناح خارج السرب" كما يحيل "صديد الروح " الى " امرأة الفسيفساء" و " نوارة الملح" وبالأخص الديوانالمفتتح "الأرض عطشى". ان دواوين سوف عبيد هي قصائد مترابطة غاية الترابط. ف "الأرض عطشى" دلالة على الأحلام الدفينة التي لا ترتوي. انها الصحراء اليباس واليباب الذي بقدر ما تفنى فيه الأشياء يزداد عطشا. فالأرض عطشى عمر واحد لا يكفي. ويكفي الدارس الحصيف أن يعود الى الديوان كي يكتشف قدرة الشاعر على تصوير مأساة الفرد المتقد حياة.

ينفتح الديوان بمقطوعة الميناء: "أزرق/ أزرق أزرق/أخضر أخضر/أسود/أسود أسود/ نظر الى البحر وقال: البحر ملح أجاج /قال الثاني: هو صاف زجاج /قال الثالث: هو أسد إذا هاج / لملم الرابع شباكه في الزورق/ ودخل البحر/ يصارع الأمواج".

الميناء قصيد مدخل ولوج الى العمق. فالإنسان وسط عالم محيط كله أمواج بالمعنيين المادي والمجازي في آن. ولن يرتوي المرء الا بالانغماس في اللجج وكلما تعمق تتفتح السبل وتنفرج الطرقوبدت بوادر العطش: العطش الى الارتواء والمعرفة على شاكلة الرجل الرابع الأخير الذي اختار له الشاعر دور الشاعر ذاته: "ودخل البحر/ يصارع الأمواج". مصورا الحياة في عنفوانها.

ويستوقف القارئ قصيد "التاج" الذي يبرز حسن السبك لدى سوف عبيد، فقصيد الشاعر يقوم على الصورة المركزة الدقيقة الصارخة: "أول ملك/جعلوا له تاجا/ ليعرفه الناس / وكي يراه القاصي والداني/ حملوه على الأكتاف/ وكي ينظروا اليه من بعيد/ رفعوه على الرؤوس/ عندما تعب من الجلوس/ ارتقى الفضاء على السلالم / وكي لا ينزل أبدا/ شيد عرشه على الجماجم.

تبدو اللوحة سريالية. فالقارئ ينطلق من سورة محسوسة حية كي ينغمس في رؤِية احتفالية لا مثيل لها في التاريخ كما حددته الرؤية الخلدونية. فالتاج أو التويج هو الغلاف الداخلي من الزهرة وهو المحيط بالمدقة و يكون التاج زاهيا مليحا و من ثم كان التاج اكليلا .ثم استعير لمعاني أخرى أساسها تمييز صاحبه و حامله. وفي تحليل الشاعر لهذا التمييز بلغ مراده ليصل الى رؤية تدل على تبصيره بالحقيقة التي تلخص مسار الإنسانية غبر عذاباتها التي لا يمكن لها بأي حال من الأحوال الخروج عنها. فالراعي والرعية والاجلال والتقدير ثم التذلل والخوف فالتزلفوالنفاق كلها مزاحل أبانها الشاعر بقدرة ومهارة مع اختزال غير مخل بالمعنى. ألم يكن الانسان حرا لحظة نشوئه؟ ألميجسد عبر حياته الأولى عمق الذات الإنسانية وهو يتحسس العالم المحيط بتؤدة و خوف ووجل و ها هو يبني واقعه على جماجم أخيه الانسان. ألم يصبح الانسان مطية للإنسان وفق رؤية شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء "المعري" القائل: "خفف الوطء فما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد ". ألم يبني السلطان/ الحاكم سلطته على جماجمالأخرين، والسلطان في هذا المعنى هو الحكم المطلق الذي يرى في شوكته وسيادته حقا شريعة لا تضاهي ولا تناقش.

لقد أبدع سوف عبيد في مقطوعاته القصيرة التي أراد لها أن تحمل صورا فنية مكثفة كما خص الشاعر "الجازية" بمطولة بث فيها تحليله الفريد لهذه الشخصية فجاءت قصيدة الجازية محملة بأبعاد هذه الشخصية التي جمعت بين إنسانية المرأة وقدرتها على الفعل وطوع الشاعر قصيده كي يتحمل الجمع بين الشعر الفصيح والشعر العامي.

ولم يخلالديوان من بعض اللحظات الحميمة كتبها الشاعر إجابة أو نتيجة علاقات أخوية صادقة مع شعراء أدباء من تونس أو من الوطن العربي. يقول في رسالة الى الشاعر عبد السلام لصيلع: "أخي الود في كفي تسابيح معاذ الله ان مالت بي الريح/ صحيح أني طاوعته قلبي اذن مرحيعلي صدري التجاريح /سنمضي في المدى رغما الى اليم هو التيار ضد والتماسيح/ وان طالت ليالينا ولنجم ففي الأقلام نجمات مصابيح".

عمر واحد لا يكفي لهفة للحياة وتلهف على العالم المحيط وفق منظور ادغار موران للحياة. فالكائن عامة والانسان الشاعر خاصة ميزان حرارة لأنسنة الانسان التي لا تكون الا بتماهي الفرد في الجذوة المتقدة لحياة يريدها لا تعرف للفناء سبيلا. لذا فعمر الواحد لا يكفي لأن أرضنا التي نقف عليها عطشى عطشى الى ما لانهاية...

العرب المغاربي \* الأربعاء 21/12/2005